تاريخ
الأدب العربى
١

العصر الجاهلى

تأليف
الدكتور شوقى ضيف

الطبعة الرابعة والعشرون

دار المعارف

٢

الصعاليك (١)

الصعلوك فى اللغة الفقير الذى لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة ، ولم تقف هذه اللفظة فى الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة ، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق . ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات : مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدى وقيس بن الحَدَّادية وأبى الطمحان القَيْنى ، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السُّلَيْك بن السُّلَكة وتأبَّط شرًّا والشَّنْفَرى ، وكانوا يَشْركون أمهاتهم فى سوادهم فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب ، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخُلعَاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً ، وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عُرْوَة بن الوَرْد العبسى ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتى هُذَيل وفَهْم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالى .

وتتردد فى أشعارهم جميعاً صيحات الفقر والجوع ، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء ، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العَدْو حتى ليسمون بالعدَّائين ، وحتى لتضرب الأمثال بهم فى شدة العدو ، فيقال : « أعدى من السُّلَيْك » و « أعدى من الشَّنْفَرى » وتُرْوى عنهم أقاصيص كثيرة فى هذا الجانب ، من ذلك ما يقال عن تأبط شرًّا من أنه « كان أعْدَى ذى رِجْلين وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء ، فينتقى على نظره أسمنها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته ، حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله (٢) » . وكما كانوا يحسنون العدو كان كثير منهم يحسن ركوب الخيل والإغارة عليها ، ويقال إنه كان للسليك فرس يسمى النَّحّام (٣) ،

---

(١) راجع بحثاً فى الشعراء الصعاليك ليوسف خليف (طبع دار المعارف) .

(٢) الأغانى ١٨ / ٢١٠ .

(٣) ذيل الأمالى للقالى ص ١٨٨ .

وللشنفرى فرس يسمى اليَحْمُوم(١)، أما اسم فرس عروة بن الورد فقِرْمِل(٢). وكانوا يغيرون أحياناً فرادى وأحياناً فى جماعات .

وكانت أكثر المناطق التى يغيرون عليها مناطق الخصب ، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة ، ومعنى ذلك أنهم كانوا ينتشرون حولها فى جبال السَّراة كما كانوا ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية فنى كل هذه الجهات يكثر هؤلاء الذؤبان من قطَّاع الطرق وقراصنة الصحراء . وهم فى أشعارهم يتغنون بمغامراتهم ونراهم فى أثناء ذلك يتمدحون بالكرم كما نرى فيهم كثيراً من البر بالأقارب والأهل ، وأيضاً فإننا نحس عندهم غير قليل من الترفع والشعور بالكرامة فى الحياة ، ويصوِّر لنا ذلك أبو خِراش الهُذَلِىّ فيقول(٣) :

وإنى لأُثْوِى الجوعَ حتى يملَّنى ... فيذهبَ لم يَدْنَسْ ثيابى ولا جِرْمى(٤)

وأغتبقُ الماءَ القَراحَ فأنتهى ... إذا الزادُ أمسَى للمُزَلَّجِ ذا طعمِ(٥)

أَردُّ شُجاعَ البطنِ قد تعلمينه ... وأوثرُ غيرى من عِيالك بالطُّعْمِ

مخافةَ أن أَحْيَا بِرغْمٍ وذلَّةٍ ... وللموتُ خيرٌ من حياةٍ على رَغْمِ

فهو يفتخر لزوجه بأنه يصبر على الجوع ، حتى ينكشف عنه ، دون أن يلحقه فيه ضيم ، وإنه ليكفيه الماء القراح بينما يتخم مِن حوله أشحاء النفوس بالطعام ، أما هو فحتى إن وجد الطعام آثر به عياله وأولاده . وكل ذلك يصنعه حتى لا يوصم بعار الذل . وسنرى عما قليل عروة بن الورد يعبِّر عن مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالا عن مثالية عنترة . وكأنما تحولت الصعلكة فى أواخر العصر الجاهلى إلى نظام يشبه نظام الفروسية ، وهى حقًّا تقوم على السلب والنهب ، ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيداً كريماً ، واقرأْ فى صعاليك هذيل من مثل أبى كبير والأعلم وفى السليك وتأبط شرًّا وغيرهم فستجد للصعلوك مثاليته فى الحياة أو على

---

(١) ديوانه المطبوع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٤٠ .

(٢) ديوانه (طبع الجزائر) ص ١٢٠ .

(٣) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) ٢/١٢٧ والأغانى ٢١/٤٢ .

(٤) أثوى : أطيل حبسه .

(٥) أغتبق : أشرب عشاء . القراح : الصافى . المزلج : البخيل .

الأقل ستجد من بينهم من يصورون مستوى خلقيًّا رفيعاً من البِرّ ، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقاً منهم عاش سفّاحاً لا يرعى عهداً ولا ذمة . ونقف قليلا عند أكثرهم دوراناً على الألسنة ، وهم تأبط شرًّا والشنفرى وعروة بن الورد .

أما تأبط شرًّا فمن قبيلة فهم واسمه ثابت [1] بن جابر بن سفيان ويعد فى أغربة العرب ، إذ كان ابن أمة حبشية سوداء ، فورث عنها سوادها ، وقيل بل أمة حرة من فَهْم تسمى أميمة . واختلف القدماء فى تعليل لقبه «تأبط شرًّا» فقيل لقبته به أمه إذ تأبط سيفاً وخرج ، فلما سُئلت عنه قالت : تأبط شرًّا ومضى لوجهه ، وقيل بل سمته أو لقبته بذلك لأنها رأته يتأبط جراباً مليئاً بالأفاعى . وربما كانت قبيلته هى التى لقبته بهذا اللقب لكثرة ما كان يرتكب من جنايات وجرائر ، أى إنه يحمل دائماً فى أطوائه شرًّا يريد أن ينفذه . ويظهر أن أباه مات وهو صغير ، فتزوجت أمه بأبى كبير الهذلى ، وكان صعلوكاً كبيراً ، فخرَّجه على شاكلته ، وربما كان لسواده وتعيير عشيرته له به وبأنه ابن أمة أثر فى تصعلكه . وكان يرافق الشَّنْفَرى فى كثير من غاراته كما كان يرافقهما صعلوك آخر يسمى عمرو بن برّاق . وليس له ديوان شعر مطبوع ، غير أن له أشعاراً كثيرة منثورة فى كتب الأدب ، وتُرْوَى له مغامرات مختلفة ، وهى مطبوعة بطابع القصص الشعبى ، مما أتاح للانتحال أن يلعب دوراً واسعاً فيما نُسب إليه من أشعار ، فمن ذلك لاميته التى أنشدها أبو تمام فى حماسته يرثى بها خاله والتى تستهل بقوله : «إن بالشِّعْب الذى دون سَلْع» فقد ذكر الرواة أنها مما نحله إياه خلف الأحمر [2] . ويمكن أن نُدْخل فى هذا الباب من الانتحال ما يُرْوَى له من أشعار يقص علينا فيها لقاءه للجنّ أو للغول . وقد روى له صاحب المفضليات قصيدة طويلة جعلها فاتحة كتابه ، وهو يستهلها بالحديث عن الطيف ، ولا يلبث أن يحدثنا عن إحدى غاراته أو مغامراته الفاشلة مع صديقيه الشنفرى وعمرو بن براق على بَجيلة فى الطائف ، إذا أرْصَدُوا لهم كميناً على ماء أوثقتهم غير أنه وصاحبيه دبروا حيلة بارعة ، نجوا بها عَدْواً على الأقدام ، ويصور لنا عدوه وشدّه السريع حينئذ فيقول :

(١) انظر ترجمته فى الأغانى ١٨/٢٠٩ والشعر والشعراء ١/٢٧١ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ص ١٩ ، ٤٣ والخزانة ١/٦٦ .

(٢) انظر تعليق التبريزى على القصيدة فى شرحه لديوان الحماسة .

ليلةَ صاحوا وأغْرَوْا بى سِراعَهُمُ بالعَيْكَتين لدى مَعْدَى ابنِ برّاقِ[١]
كأنَّما حثْحَثُوا حُصًّا قَوادِمُهُ أو أُمَّ خِشْفٍ بذى شَثٍّ وطُبّاقِ[٢]
لا شيءَ أسرعُ منى ليس ذا عُذَرٍ وذا جناحٍ بجنْب الرَّيْدِ خَفّاقِ[٣]
حتّى نجوتُ ولما ينْزِعوا سلَبِى بِوالهٍ من قَبيضِ الشَّدِّ غَيْداقِ[٤]

وواضح أنه يذكر كيف فات عدَّائى بجيلة ليلة صاحوا به وأسرعوا من خلفه هو وصاحبه ابن براق ، ويقول إنهم أثاروه حتّى غدا أسرع من الظليم والظبية ، وحتّى أصبحت الخيل الجياد لا تلحق شأوه ، بل حتّى الطير أصبحت تقصر عن عدْوه ، وكأنما جُنَّ جنونه. ويمضى فيرسم لنا صورة الصعلوك من أمثاله الذى يقدره ويجلّه ، قائلا :

لكنّما عِوَلِى إن كنتُ ذا عِوَلٍ على بَصِيرٍ بكسبِ الحمدِ سَبّاقِ[٥]
سبّاقِ غاياتِ مَجْدٍ فى عشيرتهِ مُرجِّعِ الصَّوْتِ هدًّا بين أَرْفاقِ[٦]
عارى الظَّنابيبِ مُمْتَدٍّ نَواشِرُهُ مِدْلاجِ أَدْهَمَ واهى الماء غَسّاقِ[٧]
حَمّالِ ألويةٍ شَهّادِ أَنْدِيةٍ قَوّالِ مُحْكَمَةٍ جوّابِ آفاقِ[٨]
فذاكَ هَمِّى وغَزْوِى أستغيثُ بهِ إذا استغثتَ بضافى الرأس نَعّاقِ[٩]

---

(١) العيكتان : موضع . معدى : عدو .

(٢) حثحثوا : حركوا وأثاروا . القوادم : ما يلى الرأس من ريش الجناحين . الحص : جمع أحص وهو ما تناثر ريشه وتكسر لسرعته ، يريد بذلك الظليم . الخشف : ولد الظبية . الشث والطباق : من نباتات الصحراء .

(٣) ذا العذر : الفرس . والعذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه . وذا جناح : يريد الطير . الريد : حرف الجبل .

(٤) السلب : ما يسلب فى الحرب . الواله : ذاهب العقل . القبيض : السريع . الشد : العدو . غيداق : واسع .

(٥) العول : الاستغاثة ، وأصله رفع الصوت كالعويل .

(٦) مرجع الصوت : يصيح آمراً ناهياً . أرفاق : رفاق . الهد : الصوت الغليظ .

(٧) عارى الظنابيب : خفيف اللحم ، وأصل الظنبوب عظم الساق . النواشر : عروق ظاهر الذراع . ممتد النواشر كناية عن طول الذراع واكتمال الخلق . الأدهم : الليل . واهى الماء : مطره شديد . غساق : شديد الظلمة .

(٨) المحكمة : الكلمة الفاصلة .

(٩) غزوى هنا : مقصدى . ضافى الرأس : كثير الشعر لا يتعاهده لكثرة غزوه . نعاق : يكثر من الصياح .

فهو إنما يعوِّل على هذا الصعلوك المثالى الذى يشركه فى غزواته والذى يتصف بسبقه إلى المحامد فى عشيرته ، كما يتصف بجهارة صوته وزعامته بين الرفاق وبضمور جسمه وقوته وصلابته وجرأته فى اقتحام الليالى المظلمة الممطرة حتّى إذا كانت الحرب كان المقدم فيها الذى يحمل لواءها ، وإذا كانت السلم كان ذا رأى صائب يتردد فى مجالس العشيرة وأنديتها . ولا ينسى أن يضيف إلى هذه الخصال خصلة الكرم ، ويجعلها حواراً بينه وبين شخص يعذله على كثْرة كرمه وإفراطه فيه ، حتى إنه لا يبقى على شىء لغده ، ويزجره زجراً شديداً ، يقول :

بلْ مَنْ لعَذَّالةٍ خَذَّالةٍ أَشِبٍ ... حَرَّقَ باللوم جِلْدى أَىَّ تَحْرَاقِ[1]

يقول أَهلكتَ مالا لو قنعتَ بهِ ... من ثوبِ صِدْقٍ ومن بَزٍّ وأَعْلاقِ[2]

عاذلتى إن بعضَ اللَّوْم مَعْنَفَةٌ ... وهل متاعٌ وإن أبقيتُه باقِ[3]

ولعل فى هذه الأبيات وما سبقها ما يدل فى وضوح على أن الصعلوك الذى كان يقطع الطريق فى الجاهلية كانت تنعكس عليه أحياناً صفاتُ الفروسية وما بعثت لعصره من سمو فى الأخلاق . وما زال تأبط شرا يقوم بمغامراته حتّى قُتل فى إحدى غاراته بمنازل هُذَيْل .

أما الشَّنْفَرى فكان من عشيرة الإواس[4] بن الحجْر الأزدية اليمنية، فهو قحطانى النسب ، ويدل اسمه ، ومعناه الغليظ الشفاه[5]، أن دماء حبشية كانت تجرى فيه من قبل أمه ، فهى أمة حبشية ، وقد ورث عنها سوادها ولذلك عُدَّ فى أغربة العرب . ولا نراه ينشأ فى قبيلة الأزد ، إنما ينشأ فى قبيلة فَهْم، ويضطرب الرواة فى سبب نزوله مع أمه وأخ له بها ، وربما كان أقرب ما يروونه من ذلك أن قبيلته قتلت أباه ، فتحولت أمه عنها إلى بنى فهم ، ومما يرجح ذلك أننا نجده يخص بغزواته بنى سلامان الأزديين معلناً فى أشعاره أنه يقتصُّ لنفسه منهم . ويقال

---

(١) العذالة : كثير العذل . الخزالة : كثير الخذلان لصاحبه . أشب : معترض . يريد من يعيننى على هذا العذالة .

(٢) ثوب صدق : ضد ثوب سوء . البز : الثياب والسلاح . الأعلاق : كرائم المال .

(٣) معنفة : عنف .

(٤) انظر فى ترجمة الشنفرى الأغانى (طبع الساسى) ٢١/٨٧ وخزانة الأدب ٢/١٤ وما بعدها وشرح المفضليات لابن الأنبارى ١٩٥ وما بعدها وذيل الأمالى ص ٢٠٨ وما بعدها ، والشعراء الصعاليك ص ٣٢٨ .

(٥) خزانة الأدب ٢/١٦ .

إن الذى روّضه على الصعلكة وقطع الطرق تأبط شرا ، فكان يغير معه ، حتى صار لا يُقام لسبيله[١] . وما زال يغير على الأزد ، وينكل بها ، حتى قَتَل ، فيما يقص الرواة ، تسعة وتسعين ، انتقاماً لأبيه ، وأخيراً يرصدون له كميناً ، فيقع فيه ، ويمثّلون به تمثيلا فظيعاً ، يقطّعون فيه جسده تقطيعاً ، ويرمون به للسباع ، ويقال إن رجلا عثر بجمجمته ، فعقرته ، فمات . وبذلك يبلغ قتلاه من الأزد مائة . وخيوط الأسطورة واضحة فى مقتل الرجل المكمل للمائة ، وتلعب هذه الخيوط فى أخباره جميعاً كما تلعب فى أخبار تأبط شرا رفيقه .

وللشنفرى ديوان شعر صغير طُبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجموعة الطرائف الأدبية ، ومما اشتهر له لامية العرب ، وهى مما نُحل عليه ، فقد نصّ الرواة على أنها من صنع خلف الأحمر[٢] ، وقد أحكم صناعتها وساق فيها اسم موضع فى جنوبى اليمن هو إحاطة ليدل على أن قائلها كان يتجول فى هذه الأنحاء ، وحتى يكون ذلك أدعى إلى تصديقها والثقة بها . وهى تصور تصويراً حيًّا حياة الصعلوك الجاهلى وروحه البدوية الوحشية . وبجانب هذه القصيدة المنتحلة نجد له قصيدته التائية الطويلة التى رواها المفضل فى مفضلياته ، ثم مجموعة من المقطوعات ، ويبدو فى أشعاره على شاكلة تأبط شرا هزيلا نحيلا يلبس ثياباً بالية ونعالا ممزقة . ولو لم يصلنا إلا تائيته لكان ذلك كافياً فى تصور حياته ومغامراته ، وقد سبق أن تمثلنا بأبيات منها فى وصف زوجته أميمة نعتها فيها بأخلاقية مثالية ممتازة ، ثم مضى يصف غارة أغارها على بنى سلامان فى جمع من رفاقه الصعاليك وعلى رأسهم تأبط شرا ، ونراه فى مستهل وصفه يحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذى سلكوه ، وأنهم كانوا راجلين ، يقتحمون الصعاب ، غير هيابين ولا وَجِلين ، يقول :

وباضعة حُمْرِ القِسِيِّ بعثتُها ... ومَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً ويُشَمَّتِ[٣]

خرجنا من الوادى الذى بين مِشْعَلٍ ... وبين الجَبَا ، هيهات ، أنشأتُ سُرْبَتى[٤]

---

(١) شرح المفضليات ص ١٩٦ وما بعدها .

(٢) الأمالى للقالى (الطبعة الأولى) ١ / ١٥٧ .

(٣) باضعة : قاطعة . ويريد بها رفاقه الصعاليك ، بعثتها : غزوت بها . حمر القسى ، يقال إنها تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس . يشمت : يخيب ويفشل .

(٤) مشعل والجبا : موضعان . السربة : الجماعة . أنشأت : أظهرت من مكان بعيد .

أُمَشِّى على الأَرض الّتى لن تضرّنى   لأَنْكِىَ قوماً أو أصادف حُمَّتِى[١]

أُمَشِّى على أَيْنِ الغَزاةِ وبُعْدها   يقرِّبنى منها رَوَاحِى وغُدْوَتى[٢]

وهو يعترف فى البيت الأول بأنهم قد يرجعون خائبين أو مهزومين من غاراتهم أو غزواتهم ، ولكن ذلك لا يردهم عن الغزو ، بل يدفعهم دفعاً إليه ، فهم لا يتهيبون الموت ولا وعثاء الطريق . ويصور لنا كيف كان تأبط شرا يحمل زادهم ويقتّر عليهم فى الطعام خيفة أن تطول الغزاة بهم فيموتوا جوعاً ، ويقص علينا ذلك فى مداعبة طريفة له ، إذ يدعوه أمهم ، وهو وأصحابه عيالها ، يقول :

وأُمُّ عيالٍ قد شَهِدْتُ تَقُوتُهم   إذا أَطْعمَتْهُمْ أَوْتحَتْ وأَقلَّتِ[٣]

تخاف علينا العيْلَ إنْ هى أكثرتْ   ونحن جياعٌ ، أىَّ آلٍ تَأَلَّتِ[٤]

مُصَعْلِكَةٌ لا يَقْصُر السِّتْرُ دونها   ولا تُرْتَجَى للبَيْتِ إن لم تُبَيِّتِ[٥]

لها وَفْضَةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفاً   إذا آنَسَتْ أولى العَدِىِّ اقْشَعَرَّتِ[٦]

وتأتى العَدِىَّ بارزاً نِصْفُ ساقها   تَجُولُ كعَيْر العانةِ المتلفِّتِ[٧]

إذا فزعوا طارتْ بأَبيضَ صارمٍ   ورامتْ بما فى جَفْرها ثم سَلَّتِ[٨]

حُسامٍ كلون المِلْحِ صافٍ حَدِيدُهُ   جُرازٍ كأَقْطاعِ الغَدِير المنعَّتِ[٩]

تراها كأَذْنابِ الحَسِيلِ صَوَادِراً   وقد نَهِلَتْ من الدِّماءِ وعَلَّتِ[١٠]

---

(١) لن تضرنى : لن يخيفنى بها شىء . أنكى العدو : أصيب منه . الحمة : المنية .

(٢) أمشى : إشارة إلى غزوه على رجليه . أين : تعب .

(٣) أم عيال هنا : تأبط شراً . تقوتهم : تطعمهم . أوتحت : أقلت وقترت .

(٤) العيل : الفقر وفقد الطعام . أى آل تألت : أى سياسة ساست من آله بمعنى ساسه .

(٥) مصعلكة بكسر اللام : صاحبة صعاليك . لا يقصر الستر دونها : لا تغطى أمرها .

(٦) وفضة : جعبة . سيحف : سهم عريض النصل . العدى : العداءون أو الرجالة . اقشعرت : تهيأت للقتال .

(٧) بارزاً نصف ساقها : كناية عن الجد فى الأمر . العير : حمار الوحش . العانة : جماعة أتنه الوحشية .

(٨) فزعوا : دهمهم محاربون وتهيأوا لقتالهم . أبيض صارم : سيف قاطع . الجفر : الجعبة . رامت بما فيه أى بسهامه . سلت السيف : شهرته .

(٩) جراز : قاطع . أقطاع الغدير : قطع الماء فيه . شبه السيف بها فى اللمعان والبريق .

(١٠) الحسيل : جمع حسيلة . وهى أولاد البقر . والنهل : الشرب الأول والعلل : الشرب المكرر .

وواضح أنه ينتقل من تصوير شحّ هذه الأم بالطعام إلى بيان أنها ليست أمًّا حقيقية ، فهى صاحبة صعاليك ، لا تتخذ السّتر ولا تبيت فى الخيام ، ولها جعبة سهام ، تناضل بها عن أصحابها حين يفجؤهم بعض الأعداء ، وما تزال ترعاهم رعاية حمار الوحش لأتنه ، حتّى إذا دهمهم غزاة أو مغيرون بادرت إلى سهامها ، ثم نازلتهم هى ومن معها بسيوفهم القاطعة اللامعة التى تنهل من دمائهم وتعل ، فترى وكأنها أذناب الحسيل ، وهى أولاد البقر المستأنسة . ووقف لايل فى ترجمته للمفضليات عند هذا التشبيه واتخذ منه دليلا على أصل الشنفرى وأنه يمنى حقًّا ، لأن البقر المستأنس كما يقول لم يعرف عند العرب قديماً إلا فى بلاد اليمن [١] .

ونمضى مع الشنفرى فى القصيدة فإذا هو يحدثنا عن أهداف غارته وأنه كان يقصد بها بنى سلامان ، حتّى يأخذ بثأره لأبيه ويشفى حقده وغليله ، يقول :

جَزَيْنا سلامانَ بنَ مُفْرِجَ قَرْضَها ... بما قَدَّمت أيديهمُ وأَزَلَّتِ [٢]

وهُنِّئَ بى قومٌ وما إن هَنَأْتُهمْ ... وأَصبحتُ فى قومٍ وليسوا بمَنْبِتى [٣]

شفينا بعبـــد الله بعضَ غَليلِنا ... وعوْفٍ لدى المعْدَى أوانَ استهلَّتِ [٤]

وإنى لحُلْوٌ إنْ أُريدتْ حلاوتى ... ومُرٌّ إذا نَفْسُ العَزُوفِ استمرَّتِ [٥]

وهو يصرح بأنه جَزَى بنى سلامان بما قدمت أيديهم ، ويأسى أن يكونوا قومه ولا ينتفعوا به وببأسه ، وأن يقعد لهم ويقعدوا له ، لما بينه وبينهم من ثأر قديم ، ويحدثنا أنه شفى بعض غليله بقتله لرجلين منهم هما عبد الله وعوف ، ويقول إنه حلو لأصدقائه مر على أعدائه كأنه الحنظل . وهكذا كانت حياته غارات ومغامرات ، حتّى أصاب أعداؤه منه مقتلا فقتلوه .

وثالث صعاليك الجاهلية المشهورين عروة بن الوَرْد العبسى [٦] ، وكان أبوه

---

(١) راجع ترجمة المفضليات للايل ٢/٦٨

(٢) أزلت : قدمت .

(٣) معنى الشطر الأول أن الأزد يهنئون به وبشجاعته لأنه منهم وفى الوقت نفسه هو لا يهنؤهم لأنهم لا ينتفعون به. وهو يشير فى وضوح إلى أنه ينزل فى بنى فهم وليس منهم .

(٤) الغليل فى أصله حرارة العطش ، وهو هنا العطش إلى القتل . المعدى : موضع العدو ، والمراد ساحة المعركة ، أوان استهلت : فى الوقت الذى ارتفعت فيه الأصوات للحرب .

(٥) العزوف : المنصرف عن الشىء . استمرت : من المرارة .

(٦) راجع فى ترجمة عروة الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/٧٣ والشعر والشعراء ٢/٦٥٧ والخزانة ٤/١٩٤ والشعراء الصعاليك ص ٣٢٠.

من شجعان قبيلته وأشرافهم ، ومن ثَمَّ كان له دور بارز فى حرب داحس والغبراء[١] . أما أمه فكانت من نَهْد من قضاعة ، وهى عشيرة وضيعة لم تعرف بشرف ولا خطر ، فآذى ذلك نفسه ، إذ أحس فى أعماقه من قِبَلها بعار لا يُمْحى ، يقول[٢] :

وما بِىَ من عارٍ إخالُ علمتُه   سوى أن أخوالى – إذا نُسبوا – نَهْدُ

فهى عاره ، الذى حلَّت البلية عليه منه ، والذى دفعه دفعاً إلى الثورة على الأغنياء ، وهى ثورة كانت مهذبة ، إذ لم يتحول إلى سافك دماء ولا إلى متشرد يرود مجاهل الصحراء ، فقبيلته لم تخلعه ، بل ظل ينزل فيها مرموق الجانب لسيرة كانت تروع معاصريه ومن جاءوا بعدهم ، إذ اتخذ من صعلكته باباً من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعى بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها ، ومن أجل ذلك لُقِّب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم وضاقت بهم الدنيا . وفى الأغانى « كان عروة بن الورد ، إذا أصابت الناس سنة (أزمة جدب) شديدة وتركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته فى الشدة ، ثم يَحْفر لهم الأسراب ، ويَكْنُفُ عليهم الكُنُفَ (الحظائر) ويَكْسبهم . ومن قَوِىَ منهم – إما مريضٌ يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته – خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيباً . حتى إذا أخصب الناس وألْبَنُوا وذهبت السنة ألحق كلَّ إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سمى عروة الصعاليك[٣] » . وفى خبر آخر أن عبساً كانت إذا أجدبت أتى ناس منها ممن أصابهم جوع شديد وبؤس فجلسوا أمام بيت عروة ، حتى إذا أبصروا به صرخوا ، وقالوا أيا أبا الصعاليك أغثنا ، فكان يرق لهم ويخرج بهم فيصيب معاشهم[٤] .

وعروة بذلك كله يعبر عن نفس كبيرة ، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب كالشَّنْفَرى وتأبط شرا ، وإنما يغزو ليعين الهُلَّاك والفقراء والمرضى والمستضعفين من قبيلته ، والطريف أنه لم يكن يُغير على كريم يبذل ماله للناس ، بل كان يتخير

---

(١) أغانى ٣/٨٨ .
(٢) ديوانه ص ١٥٧ .
(٣) أغانى ٣/٧٨ وما بعدها والشعر والشعراء ٢/٦٥٧ .
(٤) أغانى ٣/٨١ .

لغارته من عُرفوا بالشح والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج فى قبائلهم ، فلا يرعون ضعفاً ولا قرابة ولا حقًّا من حقوق أقوامهم[١] . وبذلك كله تصبح الصعلكة عنده ضرباً من ضروب النبل الخلقى ، وكأنها أصبحت صِنْواً للفروسية ، بل لعلها تتقدمها فى هذه الناحية من التضامن الاجتماعى بين الصعلوك والمعوزين فى قبيلته . وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشىء على من يرعاهم من صعاليكه ، فلهم مثل حظه غزوا معه أو قعد بهم المرض أو الضعف . وهو يضرب بذلك مثلا رفيعاً فى الرحمة والشفقة والبذل والإيثار .

ولعروة ديوان برواية ابن السكيت ، طُبع مراراً ، فى جوتنجن والجزائر والقاهرة وبيروت ، وتردَّد أشعاره فيه هذه المعانى الكريمة التى قدمناها ، وهى معان جعلت معاصريه ومن جاءوا بعدهم يعجبون به إعجاباً شديداً ، فقد كانت قبيلته تأتمّ به فى خلاله وخصاله ، وكان معاوية يقول : « لو كان لعروة بن الوَرْد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم[٢] » أما عبد الملك بن مروان فكان يقول : « من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد »[٣] وكان يقول أيضاً : ما يسرُّنى أن أحداً من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة بن الورد لقوله :

إنى امروٌ عافى إنائىَ شِرْكةٌ ... وأنت امروٌ عافى إنائِك واحدُ[٤]
أتهزأ منى أن سمنتَ وأن ترى ... بجسمى شحوبَ الحق ، والحقُّ جاهدُ
أُفرِّق جِسْمى فى جسوم كثيرةٍ ... وأَحْسُو قَراحَ الماء ، والماءُ بارد[٥]

وعروة يعبِّر عن معنى إنسانى رفيع ، إذ تعرَّض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مُضْنًى هزيل شاحب اللون ، فقال له : إننى يشركنى كثيرون من العفاة والسائلين ذوى الحاجة فى إنائى أو طعامى ، أما أنت فلا يشركك أحد ، ولذلك سمنت أما أنا فأصبحت ضامراً نحيلا ، وما شحوب وجهى إلا أثر من آثار نهوضى بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين ، فلست أنا الخليق بالهزؤ والسخرية ، إنما الخليق بذلك السمين

---

(١) أغانى ٣/٨١ .
(٢) أغانى ٣/٧٣ .
(٣) أغانى ٣/٧٤ .
(٤) العافى : طالب المعروف . ويريد بقوله : عافى إنائك واحد أنه يأكل وحده .
(٥) حسا الماء : شربه شيئاً بعدشىء . القراح : الخالص الذى لا يخالطه لبن ولا غيره .

البَطِين . وما لبث أن قال : إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه فى جسومهم ، بل كثيراً ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفياً بشرب الماء البارد ، على حين يعصف الشتاء بزمهريره . والذى لا ريب فيه أنه طمح إلى مثل نبيل فى البِرّ والإيثار ودفع غوائل البؤس والشقاء عن البؤساء والضعفاء . ونحن نقف عند قصيدة أنشدها له الأصمعى فى أصمعياته[1] ، وهى بذلك من أوثق شعره وأصدقه . وهو يستهلها بتوجيه الخطاب إلى امرأته سلمى التى تلومه على كثرة مخاطراته ومغامراته فى الغزوات والغارات ، وقد ردّ عليها بأنه يبغى حسن الأحدوثة وبقاءها ، وأنه إنما يرمى بنفسه فى المهالك من أجلها ، حتى يغنيها ، وحتى لا تشعر بالحاجة من بعده أو بالذل والهوان ، وهى تماريه شفقة عليه :

تقول : لكَ الويلاتُ هل أنتَ تاركٌ ضُبُوءًا بِرَجْلٍ تارة وبِمَنْسِرِ[2]

فهى تقول له إنك لن تنتهى عن غاراتك بالصعاليك من الراجلين تارة ومن الفرسان تارة ثانية ، وحرى بك أن تكف عن ذلك ، حتى لا تلقى حتفك ، ويردّ عليها :

أَبَى الخَفْضَ من يَغْشاكِ من ذى قرابةٍ ومن كلِّ سوداءِ المعاصم تَعْترى[3]

ومُسْتَهْنِىءٍ ، زيدٌ أَبوه ، فلا أرى له مَدْفَعاً ، فاقْنَىْ حياءَكِ واصْبِرِى[4]

فهو لا يستطيع القعود عن الغزو كما تريد زوجه ، لما عليه من واجبات وحقوق لأقربائه المحتاجين من قبيلته ، ونسائها المعوزات ، والعُفاة ، طلّاب العطاء من الضعفاء ، فهو إنما يغزو من أجل الوفاء بحقوق هؤلاء جميعاً . ويعرض عليها صورتين للصعلوك ، صورة رديئة ، وصورة جيدة ، أما الصورة الأولى ففيها يتراءى الصعلوك خاملا ، حسبه أن ينال أكلة من فتات مائدة ، لا يهمه أهله ولا عياله

---

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف) ص ٣٥ .

(٢) ضبوء : غزو . رجل : جمع راجل ضد راكب . المنسر كمجلس ومنبر : الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين .

(٣) الخفض : الدعة ولين العيش . ويريد بسوداء المعاصم التى أجهدها الجوع والهزال . تعترى : تغشى .

(٤) مستهنىء : طالب للهنء وهو العطاء ، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه . اقنى حياءك : صونيه واحفظيه .

ولا قوتهم ، يقول :

لَحَى اللهُ صُعْلوكاً إذا جنَّ ليلُه ... مُصَافى المُشاشِ آلِفاً كلَّ مَجْزَرِ (١)

يَعُدُّ الغِنى من دهره كلَّ ليلةٍ ... أصاب قِراها من صديق ميَسَّرِ (٢)

ينامُ عِشاءً ثم يُصْبح قاعِدًا ... يَحُتُّ الحصَا عن جنْبِه المتعفِّرِ (٣)

يُعين نساءَ الحيِّ ما يستعنَّه ... فيُضْحى طَلِيحاً كالبعير المحسَّرِ (٤)

وواضح أنه ينعته بأنه ضعيف الهمة فحسبه لقمة تشبعه ، مما يتساقط من فضلات الموسرين ، وإنه لينام ملء جفونه فليس هناك ما يشغله ، وحتى هو فى النهار ليس هناك ما يعمله سوى خدمة النساء ، فهو ذليل مهين يعيش عالة على مجتمعه . ومثل هذا الصعلوك جدير بكل ملامة ، لأنه يَحْيَا حياة وضيعة . أما الصعلوك الآخر الشريف فهو جدير بكل ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة ، يقول فى وصفه :

ولله صعلوكٌ صحيفةُ وجههِ ... كضَوْءِ شِهابِ القابِسِ المتنوِّرِ (٥)

مُطِلاًّ على أعدائِهِ يَزْجُرونه ... بساحتهم زَجْرَ المَنِيحِ المشهَّرِ (٦)

وإن بَعُدُوا لا يأمنون اقترابَهُ ... تشوُّف أَهلِ الغائبِ المتنظَّرِ (٧)

فذلك إن يَلْقَ المنيَّةَ يلْقَها ... حَميدًا ، وإن يَسْتَغْنِ يوماً فأَجْدِرِ

فهذا هو الصعلوك الذى يعجب به عروة ، صعلوك وجهه مشرق بأعماله المجيدة ، لا يزال يطل على أعدائه ويشرف عليهم ، فيظفر منهم بكل ما يريد ، على الرغم من صياحهم به وزجرهم له . وهم مهما بعدوا لا يأمنون غزوه ، بل إنهم لينتظرونه

---

(١) لحى : قبح ولعن . المشاش : رءوس العظام اللينة . المجزر : موضع الجزر .

(٢) قراها : طعامها . ميسر : غنى كثرت إبله .

(٣) يحث : يحرك .

(٤) الطليح : المعيى ، ومثله المحسر .

(٥) صحيفة الوجه : بشرته . الشهاب : شعلة ساطعة من النار . القابس : الذى يقبس النار أو يأخذها . المتنور : المضيىء .

(٦) مطلا : مشرفاً . يزجرونه : يصيحون به كما يزجر القدح إذا ضرب . المنيح : قدح سريع الخروج ولا نصيب له . المشهر : المشهور .

(٧) تشوف : تطلع . المتنظر : المنتظر قدومه .

انتظار أهل الغائب له ، علماً منهم بأنه لابد راجع إليهم ومصيب منهم . ويقول إن مثل هذا الصعلوك المغامر الجرىء إن يمت تظل ذكراه خالدة بمحامده ومناقبه . ويمضى فيحدثنا عن غزواته وغاياتها ، يقول :

أَيهلك مُعْتَمٌ وزيدٌ ولم أَقُمْ على نَدَبٍ يوماً ولى نفسُ مُخْطرِ[1]

ستُفْزِعُ بعد اليَأْسِ منْ لا يخافنا كواسِعُ فى أُخْرَى السَّوام المُنفَّرِ[2]

نُطاعِنُ عنها أَولَ القوم بالقَنَا وبِيضٍ خِفافٍ وقْعُهُنَّ مُشَهَّرُ[3]

ويوماً على غاراتِ نَجْد وأَهلِه ويوماً بأَرضٍ ذات شَثٍّ وعَرْعَرِ[4]

يُريح علىَّ الليلُ أَضيافَ ماجدٍ كريمٍ ومالى سارحاً مالُ مُقْتِرِ[5]

وهو فى أول هذه الأبيات يستنكر أن تهلك عشيرتا معتم وزيد ، وهو قاعد فى الحى ، لا يخاطر بنفسه من أجلهما فذلك عار ما بعده عار . لقد خُلق لرعاية الضعفاء والهلاَّك من قبيلته ، وهو لذلك لابد مقتحم مع رفاقه من الصعاليك الفرسان حمى بعض القبائل ليسوقوا منها ما يشاءون من الإبل السائمة ، وهم يهجمون تارة فى الحجاز وتارة فى نجد . وكل ذلك حتى يغنم ما يقدِّمه لضيفانه ، وكم يغنم ! إلا أنه لا يُبْقى على شىء فى يده ، فماله مال مقتر أو فقير مقل .

والحق أن عروة كان صعلوكاً شريفاً ، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة وأن يجعلها ضرباً من ضروب السيادة والمروءة ، إذ كان يستشعر فى قوة فكرةَ التضامن الاجتماعى وما يطوى فيها من إيثار وبِرٍّ بالفقراء ، فهو لا يسعى لنفسه فحسب ، وإنما يسعى قبل كل شىء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء .

---

(١) معتم وزيد : بطنان من عبس . ندب : خطر .

(٢) كواسع : خيل تطرد إبلا وتكسعها . السوام : الإبل السائمة . أخرى : آخر . المنفر : المذعور .

(٣) بيض : سيوف . وفى البيت إقواء . ورواية الديوان : ذات لون مشهر ، ولو صحت لم يكن فى البيت إقواء .

(٤) الشث والعرعر : من أشجار البادية .

(٥) يريح : يرد . ويقصد بالماجد الكريم نفسه ، كما يقصد بماله إبله . سارحاً : سائماً فى المرعى . مقتر : فقير مقل .